منير شفيق

شاهد من فلسطين على العصر العربي

أجرى المقابلة: **ميشال نوفل**

الحوار مع الكاتب والمناضل الفلسطيني المخضرم منير شفيق يبدأ ولا ينتهي حيث يُفترض أن ينتهي، أليس هو القائل: "كل شيء انقلب في العالم ونحتاج إلى عقل يفكر بطريقة مختلفة، وإلى موضوعات جديدة، في حل التناقضات وتقدير الموقف؟"

أطل على الدنيا من القدس حيث تكونت الملامح الأولى لحياته الفكرية والسياسية على وقع صدمة النكبة، ثم واكب المعارك السياسية الكبرى كلها التي صنعت مفاصل التاريخ العربي والفلسطيني المعاصر، والتي ساهمت في بناء وصقل مقاربته النظرية للثورة الفلسطينية والثورة العربية، ولا يزال ناشطاً، يكتب ويحاور ويساجل مدافعاً عن اقتناعاته بشأن القضية الفلسطينية والقضايا العربية والإسلامية.

حمل منير شفيق السلاح على أسوار القدس في أثناء العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦) بصفته مسؤولاً عن لجنة الحزب الشيوعي الأردني في القدس التي كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تضعها نصب عينها بسبب دورها البارز في تنظيم الاحتجاجات والتحركات في ذلك الوقت. دخل السجون الأردنية على فترات متتالية منذ سنة ١٩٥٢، وكانت فترة اعتقاله الأطول بين سنتَي ١٩٥٧ و١٩٦٥. يتحدث بإيجابية واضحة عن تجربته في الحزب الشيوعي الأردني، وحتى عند دخوله السجن الذي كان بحسب قوله أقرب إلى "فنادق بخمس نجوم" مقارنة بالسجون في مصر أو سورية أو العراق، لكنه اختلف مع قيادة الحزب بشأن تحليل الناصرية وموقف الاتحاد السوفياتي من القضية الفلسطينية وشرعية دولة إسرائيل، كما اعترض على ترويج اليساريين العرب لمفاهيم اعتبرها بعيدة عن الواقع في شأن "البورجوازية الوطنية" وتصنيف الرئيس جمال عبد الناصر ممثلاً لـ "البورجوازية الصغيرة" حيناً، و"الكومبرادور" حيناً

آخر، انطلاقاً من التفسير الطبقي الذي لم يكن مقنعاً بالنسبة إليه.

عندما خرج من السجن في سنة ١٩٦٥، لم يكن يعرف أن حركة "فتح" شرعت في الكفاح المسلح على أرض فلسطين، فانضم إليها لاقتناعه بأن استراتيجيا الكفاح المسلح أصبحت أمراً واقعاً في الممارسة، وأن رؤيته إلى تحرير فلسطين والعلاقة المتبادلة بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية، تلتقي مع مبادئ "فتح" بشأن الكفاح المسلح ومقاومة الاحتلال الصهيوني. وبعد انضمامه إلى الحركة عمل بداية مسؤولاً عن العمل السياسي في "القطاع الغربي" المعنيّ بالمقاومة في الأراضي المحتلة تحت قيادة الشهيد كمال عدوان، ثم عيّنته القيادة الفلسطينية مديراً عاماً لمركز التخطيط الفلسطيني مع صديقه الدكتور عمر محجوب.

ترجم العديد من الكتب والدراسات المتعلقة بتراث الثورات وحركات التحرير الوطني في العالم، ونشر مجموعة من الكتب والمقالات المتعلقة بنظرية الثورة الفلسطينية أبرزها: "حول التناقض والممارسة في الثورة الفلسطينية"، و"موضوعات من تجربة الثورة الفلسطينية". وخاض معركة كبرى ضد القيادة الفلسطينية بشأن برنامج النقاط العشر، الأمر الذي قاده ومجموعة من رفاقه تضم الشهداء أبو حسن قاسم (محمد بحيص) وحمدي (باسم التميمي) وسعد جرادات وآخرين، إلى تأسيس النواة الأولى للتيار اليساري "المستقل" داخل صفوف "فتح"، وهو التيار الذي ما لبث أن أنتج عدة أطر وتشكيلات نضالية على المستوى الطلابي والشعبي في لبنان، أبرزها "الكتيبة الطلابية" التي ستصبح لاحقاً كتيبة الجرمق في قوات العاصفة.

يُعتبر منير شفيق صاحب رؤية فكرية تضع العمل الفلسطيني في إطار العمق العربي ـ الإسلامي، وتركز على أهمية التقدير الدقيق لموازين القوى العربية والإقليمية والدولية. وهو يثمّن اليوم دور التيار الإسلامي في المقاومة والتمسك بالثوابت الوطنية الفلسطينية، داعياً إلى تحشيد جميع القوى الوطنية في هذه المرحلة حول مشروع الانتفاضة الشعبية في الضفة الغربية والقدس المحتلة سعياً لدحر الاحتلال وتفكيك المستعمرات وإطلاق جميع الأسرى وفك الحصار على قطاع غزة. ويرى أن هذه الأهداف الأربعة، وفي مقدمها الهدفان: دحر الاحتلال وتفكيك المستعمرات من الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٦٧، "وبلا قيد أو شرط"، يمكنها أن توحّد جميع الفصائل الفلسطينية بما فيها "فتح"، تحت رايتها، كما تحت راية الانتفاضة "لتصبح انتفاضة شعبية تصل إلى مستوى العصيان المدني الذي لا ينفك إلاّ بفرض انسحاب الاحتلال وتفكيك المستعمرات."

كان لـ "مجلة الدراسات الفلسطينية" جولات مطولة من النقاش والحوار مع منير شفيق اختارت منها لاعتبارات تتعلق بمعايير النشر، ٣ مراحل أساسية في مسيرته السياسية تتدرج من العمل في صفوف الحزب الشيوعي الأردني ثم الانضمام إلى حركة "فتح"، وقراءته لعملية انتقال قيادة منظمة التحرير إلى تونس وانخراطها في مفاوضات مدريد وصولاً إلى عملية أوسلو، وأخيراً موقف المفكر من الإسلام والإسلام السياسي.



منير شفيق

تشكل الوعي السياسي

■ **هل يمكن أن تحدثنا أنت المقدسي عن النكبة وكيف انعكست على وعيك السياسي، ثم دخولك في الحزب الشيوعي الأردني؟**

□ فترة الخمسينيات كانت في الحقيقة مرحلة محاولات الرد على النكبة، من خلال تغيير الوضع العربي إلى وضع متحرر وموحد، لأن الاستنتاج العام كان أن الأنظمة تتحمل جزئياً المسؤولية عمّا حدث، وذلك بسبب علاقة التبعية لهذه الأنظمة ببريطانيا وفرنسا، ثم كان هناك نقمة خاصة على الغرب بسبب هذه القضية، وتحديداً أميركا وأوروبا. التيارات القومية كانت تحمّل الاتحاد السوفياتي المسؤولية أيضاً، بينما راح الشيوعيون يتجنبون تحميل الاتحاد السوفياتي مسؤولية في هذا الموضوع، بل شرعوا يسلطون الضوء على الخطر الداهم الذي بدأ يتبلور عبر تشكيل الأحلاف العسكرية ودخول أميركا حلبة المنافسة على الزعامة العالمية في الخمسينيات. كذلك، دخل الحزب الشيوعي الأردني في عملية معارضة التوطين باعتباره أحد المداخل الأميركية لتصفية القضية الفلسطينية من أجل السيطرة على المنطقة، فخاض في تلك الفترة نضالاً شعبياً كبيراً ضد الأحلاف العسكرية، وخصوصاً حلف بغداد، وضد السيطرة البريطانية والفرنسية والمؤامرات الأميركية. وكانت هذه المرحلة مرحلة بروز الناصرية كقوة تحرر تمت فيها المواجهة مع الكيان الصهيوني في سياق العدوان الثلاثي في سنة ١٩٥٦، وبعد ذلك مرحلة التحرر الوطني التي تمثلت في الأردن في النضال لتحريره من المعاهدة الأردنية ـ البريطانية، وتعريب الجيش وطرد غلوب باشا من الأردن. وقد

أخذ الملك حسين لاحقاً مبادرة في ذلك، ولا سيما في تعريب الجيش، ثم تطور الوضع إلى إقامة حكم وطني وانتخابات وطنية وقيام جيش وطني، وإنجاز الوحدة المصرية ـ السورية. هذا كله كان ضمن الاتجاه العام لتطور الأحداث خلال الخمسينيات التي تحقق فيها أيضاً استقلال المغرب وتونس واندلاع الثورة الجزائرية.

■ **هل كنت في الحزب الشيوعي في فترة الخمسينيات؟**

□ دخلت الحزب الشيوعي في سنة ١٩٥٢، وخلال تلك الفترة (الخمسينيات) كلها قام الحزب بدور كبير، وكان إجمالاً أحد أكثر الأحزاب الشيوعية العربية نشاطاً: ضد السيطرة الأميركية؛ ضد الأحلاف العسكرية، من خلال تنظيم التظاهرات؛ الموقف ضد العدوان الثلاثي على مصر، وكان للاتحاد السوفياتي دور كبير في هذه المرحلة، ولا سيما في مواجهة العدوان الثلاثي، وإنذاره الشهير بضرب عواصم دول العدوان الثلاث: لندن وباريس وتل أبيب.

■ **هل حملتم السلاح في تلك الفترة كون إسرائيل شاركت في العدوان الثلاثي؟**

□ في ذلك الوقت كان هناك الحرس الوطني الأردني التابع للجيش الأردني، وجرت محاولة لإقامة تدريب عسكري في المدارس قبل سنة ١٩٥٦. عندما وقع العدوان الثلاثي طُرح السؤال ما العمل؟ يعني كيف يمكن أن نشارك في صد العدوان الثلاثي؟ وتم التفاهم مع الحرس الوطني على أن يشارك شباب الأحزاب في حراسة مناطق من سور القدس، وأخذنا سلاحاً من الحرس الوطني وبإشراف ضباطه وانخرطنا في السهر على أسوار القدس. أنا حملت بندقية وكان لازم أن أحملها، وكنت أمر على الشباب في مواقعهم لأنني كنت مسؤولاً عن اللجنة المحلية للحزب الشيوعي في تلك المرحلة. وقيل إن تقريراً للمخابرات المركزية الأميركية اعتبر الشيوعيين في القدس أخطر خلية في المنطقة من حيث نشاطهم الكبير، ولأنهم كانوا ينظمون التظاهرات التي تتوجه نحو القنصليات، الأمر الذي أشعر المسؤولين الغربيين بالخطورة. وما أشعرهم أكثر بالخطر أن الحزب الشيوعي في القدس استطاع في سنة ١٩٥٦ أن يُوصل نائباً شيوعياً إلى البرلمان هو الدكتور يعقوب زيادين، وكان هذا حدثاً استثنائياً جعل الصحف العالمية تقول: "مدينة القدس تنتخب نائباً شيوعياً."

■ **هل لك أن تشرح لنا أكثر كيف حدث ذلك؟**

□ حدثت انتفاضة في الأردن ضد تزوير الانتخابات في سنة ١٩٥٤، لكن في سنة ١٩٥٦ جرت انتخابات نزيهة، عدا في عمّان، ونجح الحزب الشيوعي بشكل كبير فيها، إذ حصل مع حلفائه على أربعة أو خمسة مقاعد، وكان يمكن أن ينجح باثنين آخرين في عمّان لأن الدكتور عبد الرحمن شقير كان أقوى مرشح في عمّان. وما أريد أن أشدد عليه أن الحزب الشيوعي خاض معارك كبيرة ضد حلف بغداد، وأتوقف هنا عند مسألة أشعر بالندم بسببها وهي أننا في تلك الفترة، في سنة ١٩٥٤، نظمنا تظاهرات مشتركة مع البعثيين شارك فيها الإخوان

المسلمون ضد عبد الناصر، لأنه أعدم اثنين من العمال وثلاثة من الإخوان، وارتفعت هتافات ضد الحكم المصري الجديد. أعتقد أن بعض المبالغات جرى في ذلك الوقت في الهجوم على عبد الناصر، وكان والدي يقول لي إنكم ترتكبون خطأ في هذه القضية لأن عبد الناصر حقق إنجازات كبيرة، لكننا لم نكن متنبهين إلى المعيار الواجب اتباعه في الوقت الذي كان عبد الناصر يصفّي الإقطاع والحكم البريطاني في مصر. لقد أخطأنا في اعتبار المعيار للحكم على عبد الناصر إدخال "النقطة الرابعة" الأميركية إلى مصر، وإعطاءه الأميركيين بناء السد العالي، لأن "النقطة الرابعة" كانت عنوان السيطرة الأميركية! لم ندرك أهمية الإنجازات وهي أن عبد الناصر ينقل مصر من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية جديدة! لماذا كان علينا أن نعاديه بهذا الشكل! كان يمكن أن ننتقده بسبب الإعدامات، لكن ليس أن نعاديه بهذا الشكل ونطالب بإسقاط حكم "الصاغات والبكباشيات". وفي وقت لاحق راجعت هذا الموقف وأعدت تقويمه، وخصوصاً بعدما ثبت أن إدخال "النقطة الرابعة" وإعطاء الأميركيين بناء السد العالي لا يعني أن عبد الناصر أصبح عميلاً لأميركا، وذلك بدليل ما حدث من تطورات بعد صفقة السلاح التشيكية والمعركة بينه وبين أميركا.

■ **هذه كانت إحدى نقاط الخلاف بينك وبين قيادة الحزب الشيوعي.**

□ أنا ناقشتهم في الموقف من عبد الناصر عندما راح الحزب الشيوعي الأردني يهاجم عبد الناصر في سنة ١٩٥٩، وصراعه مع عبد الكريم قاسم في العراق، ومساومته مع وليام راونتري مساعد وزير الخارجية الأميركي في شأن لبنان. فقد تكوّن لديّ موقف خاص تجاه ما كنّا نسمّيه في ذلك الوقت قيادة "البورجوازية الوطنية"، وبعد ذلك قيادة "البورجوازية الصغيرة"، ففي تلك الموضوعات كلها خالفت خط الحزب وصار عندي مراجعة نظرية لمنهج الشيوعيين والماركسيين بصورة عامة، إذ كانوا حيناً يفسرون سياسات عبد الناصر بأنها تمثل مصالح البورجوازية الوطنية، وحيناً آخر عندما يضربها يعتبرونه ممثلاً للبورجوازية الصغيرة في وقت كانت هذه الأخيرة ناقمة عليه. ففي الحقيقة، كان عبد الناصر يمثل الدولة المصرية، وكانت سياساته تعبّر عن حاجات الصراع ضد أميركا أو بريطانيا أو حلف بغداد أو بعض الرجعيات العربية، وكان الدعم يأتيه من الدولة ومن الجماهير الشعبية المصرية والعربية. فقصة تمثيله للطبقة لم تعد مقنعة لي.

■ **متى دخلت إلى السجن؟**

□ ما بين التوقيف والاعتقال سُجنت عدة مرات بين سنتَي ١٩٥٢ و١٩٥٦، ما مجموعه سنتان تقريباً، ثم سُجنت من سنة ١٩٥٧ إلى سنة ١٩٦٥ دفعة واحدة لثمانية أعوام كاملة، أي سُجنت عشرة أعوام على الأقل. أمّا الخلاف بيني وبين الحزب فلم يقع في تلك الفترة إلاّ في موضوع فلسطين ومسألة قرار التقسيم لسنة ١٩٤٧ واعتبار دولة إسرائيل دولة غير شرعية، غير أن هذا الخلاف كان ضمن حدود ضيقة. لكن منذ سنة ١٩٥٩ بدأ

نقاش جدي، وبِتّ أبتعد عن تحليلات الحزب بشأن عبد الناصر، وصرت أشعر بأن الحزب يعادي عبد الناصر بناء على موقف الاتحاد السوفياتي من عبد الناصر، فعلى سبيل المثال عندما أقام عبد الناصر علاقات قوية مع الاتحاد السوفياتي وأخذ السلاح التشيكي ارتفعت أسهمه إلى أعلى مستوى، وعندما اختلف معه كان الاختلاف يتحول إلى نقطة صراع حاد ضد عبد الناصر. أصبحت أعتقد أن هذا منهج غير صحيح، بمعنى أننا يجب أن نتفق ونختلف مع عبد الناصر بناء على تقديرنا نحن للموقف، وليس بناء على الموقف السوفياتي، وأن هناك معايير أُخرى يجب أن تؤخذ في الحسبان عند تحديد الموقف. فخلال الفترة ١٩٥٩ ـ ١٩٦١ لم أعد مقتنعاً بالتفسير الطبقي التقليدي الذي يعتبر أن عبد الناصر يمثل "البورجوازية الوطنية" فترة، ثم "البورجوازية الصغيرة" فترة أُخرى، أو أنه رمى أعلام النضال في البحر، كما أُعلن في "الإزفستيا" السوفياتية. لقد كانت سياسات الحزب كلها إزاء عبد الناصر تتحطم الواحدة تلو الأُخرى، فعندما قالوا إنه أقرب إلى أميركا، كانوا يقولون على سبيل المثال إنه يمثل "الكومبرادور"، وذلك عندما أدخل "النقطة الرابعة" إلى مصر وأعطى الأميركان بناء السد العالي، ثم عندما أمّم القناة ومصّر البنوك أصبح ممثلاً لـ "البورجوازية الوطنية". وفي النهاية أدركت أن التحليل الطبقي غير واقعي، وأن التحليل الجيو ـ السياسي ـ الاستراتيجي هو الذي يفسر تغيّر مواقف الضباط الأحرار الذين كانوا يحكمون مصّر أو سورية، فهم الذين يحددون الرؤية المتعلقة بالدولة، أي أنهم يمثلون الدولة والعلاقات الاستراتيجية للدولة مع الدول الأُخرى. إذا أردنا أن نبسّط الموضوع نقول إن السياسة تنبع من هذه النقطة وليس أن هناك طبقات يمثلها الضباط أو لا يمثلونها، لأنهم أصلاً يعتبرون أنفسهم عملياً فوق جميع الطبقات، ففي سورية والعراق على سبيل المثال، لم يكن الضباط يحترمون أحداً من البورجوازية أو غيرها، وإنما كانوا يصادرون أملاكهم، إلخ. إن فئة الضباط عندما تُمسك بالدولة تصبح مصالح الحكم هي الموجهة لها، ومقتضيات الاستراتيجيا هي التي تقودها وتجعلها تأخذ مواقف من الطبقات تؤثر في الوضع الاجتماعي، كما أن صراعاتهم مع الكيان الصهيوني تؤدي دوراً أكبر من هذا التبسيط في التحليل الطبقي. وعندما خرجت من السجن، وذهبت إلى مصر، تبيّن لي أن التفسير الطبقي ليس صحيحاً، إذ التقيت كثيراً من الناس من الطبقات الوسطى والبورجوازية الصغيرة، ووجدت أن أغلبهم كان ناقماً على عبد الناصر بسبب التضييقات الاستهلاكية.

ما أريد أن أقوله في شأن الحزب الشيوعي أن هناك جانباً إيجابياً في تجربته، أولاً لأنه كان حزباً من أكثر الحركات نشاطاً في مقاومة الاستعمار ومقاومة الأحلاف العسكرية، وحتى بعد ذلك ضد العدوان الثلاثي في سنة ١٩٥٦ حين اتخذ موقفاً قوياً ضده، فضلاً عن أنه فهم جيداً الوضع الدولي وصعود القوة الأميركية إلى قيادة السيطرة الإمبريالية، وكذلك النظام الرأسمالي، واتخذ موقفاً عدائياً من الرأسمالية معتمداً على الماركسية. هناك نقطة أُخرى تتعلق بالصلابة والمبدئية والتمسك القوي بالأخلاق والاستقامة السياسية، بل حتى

التضحية. فأنا على سبيل المثال ما كان لديّ مشكلة ألاّ أكمل دراستي الجامعية بسبب تفرغي للنضال، فالشيوعيون لم يكونوا يفكرون في مصالحهم الشخصية أو ما يسمى المستقبل الفردي، أمّا الآن فتلاحظ أن هناك أفراداً من داخل المقاومة يحاولون تحسين أوضاعهم، مثلاً، يدرسون كي ينالوا شهادات جامعية، بينما نحن في ذلك الوقت لم نكن نفكر قط في تطوير أوضاعنا الشخصية، وكان أهم شيء يقوم به الشيوعي هو أن يصبح مناضلاً جيداً، أن يطور نفسه ككادر، إذ لم نكن نعتبر أن التعليم ينتج ثقافة. أنا عملياً دخلت إلى الجامعة عندما كان عمري ٢٩ عاماً بعد الخروج من السجن، وكنت تركت الحزب، وكان هذا الأمر مفروضاً عليّ فرضاً لأن أختي سميرة زوجة ناجي علوش سجلتني عندما جئت إلى بيروت في الجامعة العربية لأدرس فلسفة وعلم اجتماع وعلم نفس. وقبل ذلك، في سنة ١٩٥٤، كنت قد سجلت نفسي في جامعة دمشق، لكني لم أداوم، علماً بأن والدي كان يضغط عليّ قائلاً لي يجب أن تذهب إلى الجامعة، لكن عِدني بترك الشيوعية والنشاط السياسي في سورية، وكان ذلك في زمن الشيشكلي، فرفضت ولم أذهب إلى الجامعة في دمشق. لم يكن لديّ مشكلة في عدم التفكير في المستقبل، ولا تزال هذه النزعة موجودة عندي (تأمين المستقبل الفردي)، وأستغرب عندما أرى مناضلاً يريد أن يذهب إلى الجامعة ويحسّن وضعه وهو متفرغ للمقاومة والنضال.

■ **لكنك في النهاية أكملتَ الدراسة الجامعية.**

□ كنت أذهب لتقديم الامتحانات فقط، ولم أعش حياة الطالب الجامعي. كانت شقيقتي سميرة سجلتني أنا وزوجها ناجي علوش، وكان زوجها يقول لها إذا جاء شقيقك ندرس معاً، وكان ناجي في ذلك الوقت كاتباً وشاعراً مشهوراً ومديراً لدار الطليعة في بيروت ورئيس تحرير مجلة "دراسات عربية"، لكنه لم يكن حائزاً شهادة جامعية. سجلتنا نحن الاثنين في الجامعة العربية، وكانت الدراسة هي لمواد بسيطة بالنسبة إلينا مثل علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة، ولم تكن هذه المواد تتطلب جهداً كبيراً. وبهذا حصلت على الليسانس لإرضاء أمي فقط. وبالمناسبة أنا من أسرة متعلمة ومثقفة، والدي محام منذ سنة ١٩٢٨، ووالدتي خريجة دار المعلمات ومارست التعليم خلال الفترة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٤، وكان يحزنها أن أكون في السجن ولا أصبح محامياً، بينما جيراننا الخارجون من نكبة فلسطين، والذين كانوا في مستويات اجتماعية متواضعة وظروف مادية صعبة، عاد أولادهم من الجامعات أطباء ومهندسين ومحامين. فكانت أمي تقول والحسرة تعتصرها: "كل الأولاد يتقدمون إلاّ ابني منير يرجّعنا إلى الوراء." ولهذا ذهبت لأكمل الدراسة الجامعية وأنا في الثلاثينيات لإرضائها نفسياً فقط.

أعتبر أن تجربة الحزب الشيوعي كانت مفيدة وإيجابية في بناء شخصيتي، بل إنني تطورت كثيراً حتى في فترة السجن، فتلك المرحلة أفادتني بصورة كبيرة بوضع الأسس للمعايير المتعلقة بمنهج التحليل

السياسي، وبكيفية طرح الأمور ومناقشتها. وبالمناسبة، موضوع الديمقراطية لم يكن وارداً في ذلك الوقت، فعندما كان يحدث انقلاب عسكري وطني في أي بلد عربي كنا نؤيده، إذ لم يكن بناء نظام ديمقراطي انتخابي فيه تداول للسلطة وارداً كما هو الشائع الآن؛ لم يكن وارداً في الخمسينيات عند الأحزاب ولا عند الخصوم ولا حتى عند الأميركان، بل إن أميركا في ذلك الوقت، كانت إذا نجحت في الاستفراد ببلد في العالم الثالث تقيم فيه ديكتاتورية، أو حكماً عسكرياً بشعاً للغاية.

الموضوع الذي كان مطروحاً كان يتمثل في الحريات: حريات عامة؛ حريات صحافية؛ حريات الأحزاب... هذه كلها كنا نناضل من أجلها، ولم يكن وارداً أن نناضل من أجل قيام النظام الديمقراطي بالمعنى الغربي. ومن الأشياء التي كانت سائدة نقد الماركسية للديمقراطية، فقد كنا نقول بالديمقراطية الاجتماعية باعتبارها أهم من الديمقراطية السياسية، لكن حتى الآن ينحصر نقدي للمرحلة السابقة في قمع الحريات، فعلى سبيل المثال عندما يعتقل عبد الناصر خصومه، لماذا كان يمارس التعذيب في السجون؟ لم أكن أقبل هذا النوع من القسوة، فالحد الأقصى هو أن يقبع السجين في السجن من دون أن تُنزع كرامته، وخصوصاً أننا نحن في الأردن لم نتعرض في السجون للإهانات والتعذيب اليومي المستمر. فعندما كانت الشرطة تقبض على أحد من أعضاء التنظيم السري، كان التعذيب يجري في البداية كي يعترف بأنه ينتمي إلى الحزب الشيوعي ويكشف رفاقه، لكن كان هناك حالة يأس منّا، بمعنى أنه كان مستحيلاً أن نعترف تحت أي نوع من التعذيب. وعندما كانوا يعتقلون أحداً ويرفض الاعتراف ويصمد أمام التعذيب، كانوا يتركونه في السجن بلا إهانات، وأحياناً في وضع مرفّه نسبياً.

سأروي لك قصة طريفة. بعد خروجي من الأردن في سنة ١٩٦٦ هارباً إلى لبنان، حاول الدكتور بشير الداعوق صاحب دار الطليعة أن يقنعني بكتابة تجربتي في سجون الأردن للتشهير بهذا البلد. وبعد ضغوط قبلت، ولم أكن دخلت عالم الكتابة من قبل، مكتفياً بترجمة التراث الثوري العالمي. وفي أثناء تحضيري الكتاب التقيت عدداً من الشيوعيين والقوميين المعارضين الآتين من سجون مصر وسورية والعراق، فذهبت إلى الدكتور بشير وقلت له: هل تريد أن تمدح السجون الأردنية؟ قال كيف؟ قلت إذا قارنتها بالسجون في مصر أو سورية أو العراق تكون فنادق بخمس نجوم. وفعلاً لم أنجز المشروع.

■ ماذا بعد الخروج من الحزب؟

□ عندما خرجت من السجن في سنة ١٩٦٥ لم أجد الحزب كما عرفته، بمعنى أنه دخل مرحلة التهدئة والمهادنة والمساومات. تلاشت تلك الشعلة النارية التي كانت تحركه ليحرك الشارع، وصار هناك ميل إلى التفاهم مع الحكومة، ودخل الاتحاد السوفياتي في مرحلة الوفاق الدولي، فلم تعد الأمور بالحدة نفسها التي كانت عليها في الخمسينيات. أعتقد أن الحزب في الخمسينيات كان حزباً ثورياً وقوياً جداً، لكن نقيصته الأساسية

كانت الاعتراف بتقسيم فلسطين والتبعية للاتحاد السوفياتي. ونحن نعلم في هذا السياق أن الشيوعيين الذين عاشوا في ظل دولة الكيان الصهيوني بعد التقسيم اعتمدوا خطأً سيئاً جداً، وخصوصاً في المراحل الأولى من عملهم، وكان في مقدمهم إميل حبيبي وتوفيق طوبي، لكنهم في وقت لاحق مارسوا نضالاً ضد العنصرية والحكم العسكري. ففي المرحلة الأولى أصابهم نوعاً من الجنون بحيث اعتبروا حرب إسرائيل حرباً للاستقلال فدعموها، حتى إن إميل حبيبي ذهب إلى تشيكوسلوفاكيا لشراء أسلحة لمصلحة "الهاغاناه"، الأمر الذي أعتبره خطيئة كبرى. أمّا بالنسبة إلى الحزب الشيوعي الأردني فإننا لم نعرف قط هذا النوع من السلوك تجاه دولة الكيان الصهيوني، فقد كان حزب البعث يهاجمنا بسبب الموافقة على قرارات التقسيم، لكننا في القدس رددنا عليه بشعار انفردنا فيه عن بقية فروع الحزب، وهو اعتبار "إسرائيل دولة غير شرعية"، الأمر الذي ساعد على نجاح الدكتور زيادين في الانتخابات. وقد ابتلع الأمين العام للحزب، فهمي السلفيتي، ذلك على مضض، وقال لي: "أنت مسؤول، وأنا لا سمعت ولا رأيت." لقد كان الرجل أقرب إلى القائد السياسي العملي.

بالمناسبة، تقدم الحزب الشيوعي الأردني بمشروع برنامج في سنة ١٩٥٣، وقوبل بمعارضة من اتجاهين: اتجاه يعارض لأسباب عملية، وقد وضع بنداً يطالب بتنفيذ قرار التقسيم ١٨١، والاتجاه الثاني عارض وضع هذا البند باعتبار أن الزمن تخطاه، وأنه حل مكانه دعوة إلى حل القضية الفلسطينية مع الاعتراف بحدود نتائج حرب ١٩٤٨، أي حدود خطوط الهدنة. ولهذا توقف الحزب عن إصدار برنامج وطُوي المشروع، وبقي بلا برنامج حتى خروجي منه في سنة ١٩٦٥، وأظنه استمر على هذه الحال مدة طويلة. لقد علمت في سنة ١٩٥٤ عندما التقيت رئيس الحزب الشيوعي الرفيق فؤاد نصار في سجن الجفر، بأنه صاحب الاتجاه الثاني، وأنه هو الذي عطّل عملياً صدور برنامج الحزب بصيغة تطبيق قرار ١٨١. وهذه معلومة أتحمّل مسؤوليتها، وأكشفها الآن لأنها أصبحت بعد أوسلو لا تؤذي الحزب على الرغم من اعتراضي عليها في حينه.

الانتقال إلى حركة "فتح"

■ **حدثنا عن الظروف التي دفعتك إلى الانتقال إلى حركة "فتح"؟**

□ بعد حرب ١٩٦٧ واحتلال الضفة الغربية وغزة طُرحت مسألة المقاومة، بمعنى أن المقاومة أصبحت مشروعاً قائماً على الأرض، أمّا قبل ذلك، أي خلال الفترة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧، فكانت متناقضة مع خط عبد الناصر.

■ **هل تعني أن الهزيمة العربية في سنة ١٩٦٧ رسخت عندك الاقتناع بطريق**

الكفاح المسلح؟

□ نعم بالتأكيد، لأن الكفاح المسلح أصبح حالة موجودة على الأرض، وكنت قبل سنة ١٩٦٧ قمت بترجمة العديد من الكتب المتعلقة بالكفاح المسلح وحركات التحرير والثورات، يعني بكلام آخر، كنت أعمل على هذا التراث كافة. في سنة ١٩٦٧، ومع تبنّي عبد الناصر المقاومة وانخراطه على ما أعتقد في هذا التوجه، شعرت بأن البلد دخل في مرحلة جديدة، هي مرحلة المقاومة الشعبية وتسليح الشعب، وعندما يصبح السلاح في يد الشعب فإن هذا يُدخل تغييرات جبارة في موازين القوة. أنا في الحقيقة اقتنعت بمبادئ حركة "فتح" المتعلقة بمركزية القضية الفلسطينية، واعتبار أن مقاومة العدو بالسلاح تمثل الطريق نحو إنهاض الأمة العربية، كما تمثل الطريق لتثوير الواقع العربي، وتربك جميع الأنظمة المتعاونة مع الغرب وتدخلها في مواجهة مع شعوبها، ولا سيما أنني كنت بنيت اقتناعات راسخة بالثورة العربية والوحدة العربية، وأصبحت الوحدة العربية بالنسبة إليّ مبدأ يماثل قضية فلسطين أو أقوى. لقد وجدت ضالتي في منطلقات "فتح"، وخصوصاً ما يتعلق بمركزية القضية الفلسطينية واستراتيجيا الكفاح المسلح والحرب الشعبية، والرابط بين الثورتين الفلسطينية والعربية، وضرورة أن تحدث دينامية متبادلة بين الدور الفلسطيني والدور العربي الذي يعود فيدفع بالثورة الفلسطينية إلى الأمام. وكان عندي الاقتناع بأنه كي تتحرر فلسطين، فإن تغييراً عربياً كبيراً يجب أن يحدث، وأن الشعب الفلسطيني لا يمكنه أن يحرر فلسطين بمفرده، وأننا، نحن الفلسطينيين، نستطيع أن نمهد الطريق عبر إنهاك العدو، فنمنع تمدده وتنفيذ مشاريعه، غير أن الأمل الأساسي والفهم العميق يحتّمان ضرورة أن تتم وحدة عربية وتغيير عربي كي يذهب هذا الدفع في اتجاه تحرير فلسطين. هذه كانت اقتناعاتي وكانت منسجمة مع مبادئ "فتح". النقطة التي كانت تثير نقاشاً واسعاً في صفوف "فتح"، وأنا كنت جزءاً من هذا النقاش، هي أن بعض الفصائل الفلسطينية كان يريد أن يقوم الفلسطينيون بالمقاومة، وأن تتدخل "فتح" لمصلحة المعارضات العربية بحيث تدخل في صدام مع الأنظمة، وتتدخل في دعم كل معارضة عربية. كنت أرى أن هذا الموقف يؤدي إلى تدمير المقاومة ولا يساعد الثورات العربية، لأنه يُبعد عن التركيز على التناقض الرئيسي. لماذا على الشعب الفلسطيني أن يقوم بالثورة العربية! إن الأمة العربية أهم من الشعب الفلسطيني وأقوى، وجماهيرها أقوى ويُفترض أن تقوم هي بالمهمة. نحن لا نقدر أن نحمل بطيختين بيد واحدة، فعلى سبيل المثال لا يمكننا أن ندخل في المعارضة مع النظام السوري في الوقت الذي نريد هذا النظام أن يكون قاعدة للمقاومة، وأن يكون متضامناً مع الشعب الفلسطيني وحاضناً للمقاومة. كان من الخطأ في ذلك الوقت أن ندخل في معارضة عبد الناصر بينما كان هو الذي يحتضننا ويحمينا. وهذا أيضاً ينطبق على وجودنا في الأردن ولبنان. كان فهمي لمسألة التجزئة والأحجام الجيوبوليتيكية للدول العربية التي نشأت عن التقسيمات التي حدثت في المنطقة العربية، هو أن لكل

بلد عربي حجماً ودوراً، لكن ليس كل بلد يمكنه أن يقوم بالدور المركزي، بمعنى أن يحل مكان مصر مثلاً في قيادة الثورة العربية. ولهذا كنت وما زلت ضد سياسات إقحام المقاومة الفلسطينية في الصراعات العربية الداخلية، لأنه لا دور لها هنا. وإذا تدخلت تورطت وفقدت تركيزها على العدو الصهيوني، وهذا حِمل أكبر من قدراتها، فكيف تحمل فوق كاهلها أثقال الثورة العربية؟

وبالمناسبة، مثّلت "فتح" بالنسبة إليّ تجسيداً لاتجاه الاستقلال على المستوى الدولي، وخصوصاً بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي أو الصين. أتذكر أنني خرجت من الحزب الشيوعي وعندي ما يشبه العقدة إزاء التبعية لمحور خارجي.

وبالمناسبة أيضاً، اقتنعت بموضوعة التضامن العربي مع المقاومة ومنظمة التحرير الفلسطينية باعتبار أن توافق الدول العربية لا يمكن أن يكون أميركياً أو سوفياتياً، وأنه لا بد له من أن يخرج متوازناً ومستقلاً عن المحاور الدولية والعربية. وقد دافعت عن موضوعة التضامن العربي بقوة في حرب تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣ التي تجرأ على خوضها، ولو بنجاح عسكري نسبي، جيشا مصر وسورية والمقاومة وعدد من الجيوش العربية (العراق والجزائر والمغرب)، فضلاً عن التجرؤ على استخدام النفط كسلاح.

■ **إذاً، واجهتَ بعض الكتّاب والناشطين الذين كانوا يخلطون بين مفهوم الثورة ومفهوم المقاومة، ويعتبرون أن المقاومة الفلسطينية ليست ثورة.**

□ كنا نعتقد أنه بمجرد أن ينتقل الناس إلى مستوى حمل السلاح والحرب الشعبية فإن هذه ستكون ثورة، وتسميتها مقاومة أو ثورة هي مسألة شكلية. ما معنى الثورة؟ هي أن تنقل المقاومة إلى المستوى الأعلى في المواجهة. فمنظمة التحرير الفلسطينية حين تضع هدفها تحرير كل فلسطين وتصفية الكيان الصهيوني، فهي إنما تدخل في تعريف ثورة من الباب العريض لما يُحدثه هذان الأمران من تغيير نوعي تاريخي. فعلى مستوى تحرير كل فلسطين هي ثورة، وعلى مستوى دحر الاحتلال وتفكيك المستعمرات في الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة هي مقاومة. ومع ذلك لا مشاحنة في المصطلح كما يقول الفقهاء.

■ **ألا ترى أن هناك علاقة بين مفهوم الثورة والتحرير الكامل؟**

□ المسألة لا تتعلق بالهدف فقط، بل بالشكل النضالي أيضاً، فقد كنت متأكداً منذ اليوم الأول أنه من دون مباركة مصر الناصرية للمقاومة لا يمكن أن تصبح مقاومة جماهيرية. ولولا النفس الذي دعم المقاومة الفلسطينية من جانب الدول العربية عامة، ومصر وسورية خاصة، وهو الأمر الذي جعل الآلاف يتدفقون على حركة "فتح" في الأردن بعد معركة الكرامة في سنة ١٩٦٨، لكانت أصبحت لقمة سائغة على طاولة اللئام. ولا شك في أن هناك دوراً سلبياً للواقع العربي من حيث محاولته فرض الوصاية على الفلسطينيين، لكن للثورة أبعاداً تتعلق بالعمق العربي. فالذين كانوا في تلك المرحلة يصرون على اعتبارها مقاومة فقط وليس ثورة، إنما كانوا يريدون في الحقيقة التقليل

من قيمة دورها وأهمية دور الشعب فيها.

أمّا بالنسبة إلى هدف التحرير الكامل واستراتيجيا الكفاح المسلح الطويل الأمد، فنحن أمام مفهوم ثورة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. نحن هنا ما فوق تغيير نظام اقتصادي - سياسي - طبقي، لأن ما نواجهه هو كيان ودولة ومجتمع وجيش ونظام تأسست جميعاً على مشروع استعماري - استيطاني - إحلالي - عنصري طرد شعباً من وطنه ومن مدنه وقراه وبيوته وأراضيه وحل مكانه، فكيف لا يكون التحرر منه وتصفيته وعودة الشعب ثورة؟

■ **دعنا ندخل الآن في صلب الموضوع، أي تجربتك في حركة "فتح".**

□ في سنة ١٩٦٨، أي في الفترة التي انضممت فيها إلى حركة "فتح"، طُرح موضوع الدولة الديمقراطية، وفضّلت القيادة عندما دخلتُ "فتح" أن أعمل في الإعلام والعلاقات الخارجية، وهذه الأخيرة تعني أن عليك أن تذهب إلى أوروبا والدول الأُخرى فتلتقي القوى الثورية وتشارك في الحوارات السياسية... وذلك لحشد أنصار للثورة. وهنا، عندما طُرح موضوع الدولة الديمقراطية ظهر ترحيب بهذا الموضوع من جانب القوى اليسارية، وحتى من جانب الليبراليين الذين فهموا من هذا الطرح أنه ينطوي على رفض لمقولة "إلقاء اليهود في البحر"، وأن هناك مشروعاً يقوم على المساواة والعدالة في فلسطين، لا بد من أن يؤدي إلى قيام نظام ديمقراطي علماني يتساوى فيه اليهود والمسيحيون والمسلمون. كان طرح الدولة الديمقراطية شعاراً قوياً، وكان مشروعاً يهدف إلى إزالة الكيان الصهيوني بجميع مؤسساته بعد تحرير فلسطين من خلال الكفاح المسلح، وليس أن يتحقق المشروع بالتفاوض، لأن تصفية الكيان الصهيوني بمؤسساته كلها تعني أن الناس الذين يبقون بعد ذلك في فلسطين يقيمون دولة ديمقراطية يتساوى فيها الجميع. هذه كانت فكرة مشروع الدولة الديمقراطية، وأنا اقتنعت بهذه المسألة وعملت عليها، لكن عندما طُرح برنامج النقاط العشر نتيجة الضغوط كي يتخلى الفلسطينيون عن فكرة التحرير الكامل وتصفية الكيان الصهيوني، تغيّر موقفي من مفهوم الدولة الديمقراطية لأنه أصبح مدخلاً إلى التنازلات.

إن طرح حل نهائي كحل الدولة الديمقراطية يتضمن تنازلاً مجانياً بإعطاء الحق في المساواة إلى الذين جاؤوا مستوطنين وحلّوا مكان الشعب الفلسطيني، بينما القانون الدولي يعتبر وجودهم غير شرعي ما داموا جاؤوا مستعمرين واستيطانيين وصادروا وطناً وطردوا شعبه. والأسوأ أن طرح هذا الحل يفتح الباب لمناقشة مدى واقعيته وعمليته ليطرح حلاً آخر وهكذا. لذا، يجب أن يبقى الكيان في حالة اعتداء ولا حق له، ويبقى الفلسطيني في حالة مقاومة وتحرير، وهما من المسلمات.

■ **مَن الذي بادر إلى طرح برنامج النقاط العشر؟**

□ طرحه بعض الليبراليين الفلسطينيين في الغرب الذين لم يقتنعوا بفكرة الدولة الديمقراطية، باعتبارها ليست واقعية، علاوة على الشيوعيين الذين كانوا يريدون أن ينحصر مشروع الدولة ضمن الأراضي

الفلسطينية المحتلة منذ سنة ١٩٦٧، وينسجم ذلك مع الاتحاد السوفياتي وقرار ٢٤٢، فضلاً عن بعض الأنظمة العربية التي كانت تريد التسوية مع "إسرائيل". وكانت المحصلة تبنّي نظرية البرنامج المحلي، أو برنامج النقاط العشر. طبعاً، عدد من إخواني وأنا دخلنا في معركة طويلة وقاسية مع هذا التوجه ضد التنازل، واعتبرنا أنه تراجع عن مبادئ "فتح" والميثاق الوطني الفلسطيني، واتخذنا موقفاً متشدداً من هذا التوجه أكثر من أي أطراف أُخرى، الأمر الذي شكّل سمة أساسية من سمات تشكل التيار الذي عملنا على بنائه، والذي كان أحد تعبيراته "الكتيبة الطلابية"، فبقينا ملتزمين بالميثاق الوطني الفلسطيني والمنطلقات الأساسية لحركة "فتح"، بما في ذلك استراتيجيا الكفاح المسلح وحرب الشعب، إلخ. في هذه المرحلة نفسها بدأنا نشعر بأنه يجب ألاّ نقبل بموضوع الدولة الديمقراطية نفسها، انطلاقاً من الأسئلة التالية: لماذا يتعين علينا نحن دائماً أن نطرح حلاً للقضية الفلسطينية؟ لماذا كان علينا الاستجابة للضغوط التي تفرض علينا طبيعة الحل؟ لماذا يُفرض علينا نحن أن نقدم الحل ونبحث عن استرضاء الآخرين أو الدول الكبرى؟ لأنه عندما تقدم حلاً للقضية الفلسطينية، فإنك إنما تقدم تنازلاً ما لليهود الذين جاؤوا إلى فلسطين بطريقة غير شرعية، واستولوا عليها واستوطنوها، وصار لهم وجود كياني فيها بعد تهجير ثلثَي شعبها في سنة ١٩٤٨. في الحقيقة تكون في صدد تقديم تنازل مجاني من دون أن يعترفوا هم في المقابل بحقوقك، يعني أنت في الدولة الديمقراطية تكون قد اعترفت لليهود بأن لهم حقاً مساوياً للمسلمين والمسيحيين في فلسطين، بينما هم لا يعترفون بأن لك حقاً مساوياً لهم، وبأن اليهود الذين اغتصبوا الأرض في فلسطين ليسوا متساوين معنا في الحقوق، وفي مسألة مَن الظالم ومَن المظلوم. وإذا كنا نريد أن نصل إلى هذا التنازل فعلينا أن نصل إليه بعد التحرير وإزالة "كيان إسرائيل"، وليس أن نعطيهم مجاناً حقاً في فلسطين، ولذلك تكوّن لديّ رأي فحواه أن الشعب الفلسطيني يجب أن يمتنع من الخوض في أي موضوع يتعلق بحل القضية الفلسطينية. نحن لدينا احتلال فيجب أن نقاوم الاحتلال؛ لدينا استيطان فيجب أن نقاوم الاستيطان؛ لدينا الكيان الصهيوني في المرحلة المقبلة فيجب أن نقاومه ونحرر فلسطين، وبعد ذلك نرى ماذا نفعل. أتذكر أنه في أواخر سبعينيات القرن الماضي وأوائل ثمانينياته، جاء وفد من الكونغرس الأميركي كي يقابل عرفات، وكان هناك أناس مثل إدوارد سعيد يحاولون مساعدة عرفات في فتح خط مع الأميركان، لأنه في تلك المرحلة كانوا يمهدون للقاءات أميركية، أو لاتصالات أميركية ليبرالية مع منظمة التحرير الفلسطينية. وفي آخر يوم لزيارة الوفد ذهب أعضاؤه إلى مكتب أبو عمّار في أثناء انتظارهم موعد سفرهم بعد بضع ساعات، لكن طرأ لعرفات موعد مع السفير السوفياتي وأراد التخلص منهم، فأرسلهم إلى مركز التخطيط الذي كان مستثنى من زيارتهم، لأننا في ذلك المركز كنا معارضين لهذه العلاقات. وفي اللقاء أخبرتهم أننا معارضون للنقاط العشر ولأي من قرارات هيئة الأمم المتحدة بما فيها قرار التقسيم، فتعجبوا كيف نرفض قرارات هيئة

الأمم، فقلت إن قادة الكيان الصهيوني لا يعترفون بأي قرار ولم يحددوا ما الحل الذي يوافقون عليه، فلماذا نقبل نحن بالحلول ونقدم تنازلات بالمجان؟ نحن بلدنا محتل ونريد تحريره. نقطة على السطر. وشعبنا طُرد من بيوته وأرضه ويريد العودة.

■ **نعود إلى تشكيل التيار. هل من مزيد في توضيح دوافعه؟**

□ بعد الخروج من الأردن تعاظم الهجوم السياسي والنقد للقيادة الفلسطينية، بما في ذلك من داخل "فتح" نفسها، وكنت قد تسلمتُ مسؤولية العمل السياسي في "القطاع الغربي" بقيادة الشهيد كمال عدوان الذي أخذ مكان أبو جهاد في ذاك القطاع. وكان يسار "فتح" يلتقي ليلياً بعدد من أعضاء المجلس الثوري في بيت ناجي علوش في بيروت، وكنت أشارك في هذه اللقاءات. وذات يوم طلبني الأخ كمال عدوان، وكان قد عاد للتو من قواعد "فتح" العسكرية في الجنوب اللبناني، وقال لي: "نحن في كارثة. لم أجد أدلاّء يعرفون بمنطقة الجليل، ولم أجد أولئك الذين عندهم استعداد ليدخلوا كدوريات قتالية." وطلب مني أن نضع برنامجاً تثويرياً وإحيائياً.

نقلت هذا الحديث إلى المجتمعين في بيت صهري وصديقي ناجي علوش، فما كان منهم إلاّ أن بدأوا يحتجون على ياسر عرفات وقيادة "فتح" اليمينية وتحميلهما مسؤولية هذا الوضع الفتحاوي المزري. وبعد أن وفّوا وكفّوا بالنقد قلت لهم - وكان لديّ اعتراضات كثيرة على توجهات اليسار داخل "فتح" وخارجها - ما رأيكم لو نتشكل نحن اليساريون والثوريون في مجموعات قتالية، وندخل كدوريات إلى الأرض المحتلة، ونقدم نموذجاً ثورياً في مقابل مَن تصفونهم باليمين؟ طبعاً اتُّهم الاقتراح بأنه سيقضي على اليسار قبل أن يصلب عوده. وعندما خرجنا من اللقاء لحق بي أبو حسن قاسم وقال: "إن ما قلته يلتقي مع ما أفكر به، ضع يدك في يدي، ولنعمل على هذا الأساس."

وفي الغد التقينا وجاء معه الشهيد سعد جرادات، وبدأ الاثنان - وأنا معهم - ببلورة هذا التيار، وكان أبو حسن قائده الأول، وسيصبح سعد قائد السرية الطلابية، وحمدي قائد عمليات الداخل.

خروج المنظمة من لبنان وعملية أوسلو

■ **كيف تقرأ عملية انتقال الثقل إلى فلسطين بعد خروج منظمة التحرير من لبنان، وانفجار انتفاضة ١٩٨٧؟**

□ لا شك في أن حرب ١٩٨٢ على لبنان، وإخراج منظمة التحرير من لبنان، أدخلا الوضع الفلسطيني في مرحلة جديدة، مختلفة جوهرياً حتى عن المرحلة التي تم الانتقال فيها من الأردن إلى لبنان. يمكن القول إن الانتقال من الأردن إلى لبنان في سنة ١٩٧١ كان انتقالاً جغرافياً أكثر منه

انتقالاً في الوضع العام للثورة الفلسطينية، كثورة وكمعادلة، لكن بعد سنة ١٩٨٢ حدث تغيير أساسي في وضع منظمة التحرير، وخصوصاً وضع قيادة "فتح"، لأنه بعد تلك السنة فوراً (١٩٨٣)، حدث انشقاق كبير داخل الحركة، أخذ قسماً أكبر من الذين بقوا داخلها مع عرفات، كما وقعت قطيعة كاملة بين "فتح" والقيادة السورية. لقد كان لبنان يشكل قوة وحاضناً كبيراً ومهماً للثورة الفلسطينية في المواجهة مع العدو، أمّا الآن فإن قيادة عرفات والذين كانوا قريبين منه أصبحت عملياً، في المنفى، في تونس، أو ما يشبه المنفى، وبالتالي حدث الانقطاع بين "فتح" والحاضنة السورية التي أدت دوراً أساسياً في حماية الحركة بعد احتضان الجزائر لها، ولا سيما في حماية وجود "فتح" منذ سنة ١٩٦٥، الأمر الذي أنتج تغييراً جوهرياً في ميزان القوى المتعلق بالوضع الفلسطيني. صحيح أن عرفات في ذلك الوقت اعتبر تونس والتحرر من الضغط السوري أمراً إيجابياً، لكن هذا في الحقيقة كان كارثة، لأنه أفقد "فتح" القاعدة العسكرية. فعرفات كان يعتقد أن الابتعاد عن سورية سيُطلق يده في العمل السياسي والمشروع الآخر الذي هو مشروع الدولة الفلسطينية، إذ كان يتصور أن بقاءه في لبنان في ظل هذه الخلافات مع سورية يبقيه مهدداً بصورة مستمرة حتى بالنسبة إلى حياته، ولذلك فإن هذا التغيير أدخل المنظمة وياسر عرفات في أزمة حقيقية لأن المنظمة فقدت مركز الثقل في صراعها مع الكيان الصهيوني، ومن هنا نشأت ضرورة التركيز على الوضع الداخلي الفلسطيني. تيار أبو حسن وحمدي وكنت من ضمنه اتخذ قراراً مبكراً تبلور قبل هذا الوقت بين سنتَي ١٩٧٨ و١٩٧٩، وفحواه أن مرحلة لبنان هي في طريق النهاية، وأن مركز الثقل ينتقل إلى الداخل الفلسطيني. ويمكنني القول إنه منذ هذا التاريخ، أي قبل ثلاثة أعوام من سنة ١٩٨٢، بدأت قيادة التيار بالتركيز على الوجود السري في الأردن، وعلى الداخل، والسبب في هذا التقدير أن الوجود الفلسطيني في لبنان كان للقاهرة فيه دور أساسي، فالوجود في لبنان انطلق من "اتفاق القاهرة"، وعندما ذهب أنور السادات إلى الكيان الصهيوني ووقّع المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية وعُزل عربياً، فقدت الثورة الفلسطينية عملياً السند الذي كان مفترضاً أن يحميها في لبنان. ويبدو أن ما عوّض هذه الخسارة هو انتقال مركز الثقل العربي في تلك المرحلة إلى مؤتمر قمة بغداد، إلاّ إنه أيضاً عندما انخرطت بغداد في حرب مع إيران، فإنها فقدت القدرة على القيام بأي دور في الساحة الفلسطينية (لبنانياً)، لأن همّ صدام حسين الأساسي أصبح مواجهة الحرب مع إيران، وهذا طبعاً زاد في ضعف الدور الذي كان من الممكن أن يؤديه عرفات على المستوى الفعلي. ويمكن القول إن التيار الذي كان لديه فاعلية أكبر بالنسبة إلى الوضع الفلسطيني هو التيار الذي مثله القائدان أبو حسن وحمدي وإخوانهما، بمعنى أنه صار في إمكانه أن يقوم بدور في فلسطين، ولا سيما عبر تشكيل "سرايا الجهاد الإسلامي" التي كان السبب الجوهري في تشكيلها إدخال الضفة وغزة مجدداً في تصعيد المقاومة، وهو ما عوّض خسارة الوضع في لبنان في ذلك الوقت بالنسبة إلى

النضال الفلسطيني. أمّا الأمر الذي لم يكن الكيان الصهيوني يحسب له حساباً عندما أخرج منظمة التحرير من لبنان واعتبر أنه ارتاح على جبهة لبنان، هو تشكل حزب الله لاحقاً، والذي أصبح لا يقل خطراً على الكيان الصهيوني من الوضع الفلسطيني الذي قام بعد سنة ١٩٦٨. فهذه المسألة كانت تعني نشوء مقاومة وطنية وإسلامية ضد الاحتلال الصهيوني، وكانت في لبنان فاعلة ومسؤولة ومدعومة من سورية وإيران، الأمر الذي أدى من الناحية الاستراتيجية الكلية إلى ضمور فاعلية منظمة التحرير، وهبوطها إلى مستوى متدنٍّ. لم يعد للانشقاق أثر في الحياة الفلسطينية، إذ تجمد في دمشق، ولم يعد مسموحاً له مواصلة المقاومة أو إطلاق مقاومة جديدة من خلال "فتح"، وهذا كان العنصر القاتل في ذلك الانشقاق، كما أن منظمة التحرير حاولت أن تُبقي لها وجوداً في لبنان فخاضت معركة طرابلس في سنة ١٩٨٣، ثم طرأت أوضاع جديدة في لبنان فتحت أمام المقاومة إمكان العودة إلى لبنان بين سنتَي ١٩٨٤ و١٩٨٥، وأعتقد أن هذا كان قراراً سورياً في تلك المرحلة، وصار هناك تسهيلات كي يمروا حتى عبر مطار بيروت. وأذكر أن الشهيد أبو الهول رحمه الله راح يتحدث عن هذا المنفذ المفتوح للعودة إلى لبنان، فقلت له إنك تعود إلى لبنان بقرار سوري، وإلاّ كيف استطعت أن تعود عبر المطار خلال الفترة ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥؟! فردّ أبو الهول بالقول: كلا، نحن تدبرنا أمرنا مع بعض الضباط، وثبت لاحقاً أنه كان هناك رسالة سورية إلى حزب الكتائب: إذا رفضتم أن تمشوا معنا، فإننا سنعيد الفلسطينيين إلى لبنان! وكان تحليلي أن فتح باب العودة كان محاولة للضغط على الآخرين، لكن المشكلة في هذه القصة أنها كانت قصيرة الأجل، لأن الرجوع إلى المخيمات فجّر حرباً سُميت حرب المخيمات. وهنا أيضاً أتصور أن ياسر عرفات دفع كثيراً في هذا الاتجاه للرد على سورية والمشاغبة عليها، وكان وراءه العراق الذي شجعه بشكل كبير، كما كان هناك أطراف لبنانية متورطة في هذا الأمر، وربما بينها القوات اللبنانية التي شجعت الفلسطينيين على المرور عبر جونية بدعم عراقي لمحاربة السوريين. في أي حال، جاءت حرب المخيمات لتكرس القطيعة بين سورية ومنظمة التحرير في تلك المرحلة، الأمر الذي يعيد إلى الأذهان ما جرى في حرب أيلول / سبتمبر ١٩٧٠ في عمّان، لأنني أعتقد أن أبو عمار استخدم تلك الحرب لإحداث قطيعة مع النظام الأردني للتشديد على فكرة "الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني"، أي أنه لا يريد أي تدخّل سوري أو أردني في القرار الفلسطيني، وهو ما حققه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عبر حرب أيلول / سبتمبر ١٩٧٠ في الأردن وحرب المخيمات في لبنان.

■ ألم يصنع القرار الفلسطيني المستقل الانتفاضة؟

□ التطور الذي حدث والذي أدت فيه "سرايا الجهاد الإسلامي" دوراً هو انتقال المقاومة إلى داخل فلسطين، لكن انتفاضة الحجارة في أواخر سنة ١٩٨٧ تمت بصورة عفوية، وهي ليست من صنع السرايا ولا منظمة التحرير،

بل إن الشعب الفلسطيني شعر بأن القيادة في الخارج فقدت قدرتها على العمل، وأن المسؤولية انتقلت إليه في الداخل، وبالتالي فإن معادلة موازين القوى والظروف سمحت بأن يكون هناك انتفاضة شعبية. وممّا لا شك فيه أن الانتفاضة بدأت عفوية، ورمت على ما يبدو طوق النجاة إلى أبو جهاد و"فتح" كي يضعا ثقلهما مع الانتفاضة الأولى بصفتها التعويض عمّا جرى في لبنان، ويعيدا، بطبيعة الحال، إلى "فتح" وإلى بقية الفصائل دورها. كما أتاحت لحركة "حماس" أن تنمو وتنطلق في أحضانها، ففي تلك المرحلة دخل عنصر جديد في الساحة الفلسطينية هو الدور الإسلامي المكثف والقوي، وفي الأشهر الأولى من الانتفاضة صار هناك دور لحركة "حماس" وحركة الجهاد، وبدأ الدفع في هذا الاتجاه، وبالتالي شكّلت الانتفاضة مرحلة جديدة أهم ما فيها أنها نقلت مركز الثقل في المواجهة مع العدو من الخارج إلى الداخل، وأصبح مركز الثقل الفلسطيني فعلاً على الأرض في الداخل. هذا الأمر جعل عرفات يدرك أنه لم يعد بحاجة إلى استخدام لبنان أو الأردن كي يكون رقماً صعباً في المنطقة، بل أصبح الرقم الصعب نابعاً من الانتفاضة، وخصوصاً أنه تبين أن هذه الانتفاضة قادرة على أن تستمر أعواماً، وأنه ليس من السهل إخمادها، لكن للأسف كان التفكير السائد على مستوى قيادة منظمة التحرير هو استخدام هذه الانتفاضة للذهاب إلى التسوية، وقد أدى الانهيار السوفياتي دوراً كبيراً في هذا الاتجاه. فهذا الانهيار تسبب بنكسة لدى القوى اليسارية، وحتى القوى القومية في الساحة الفلسطينية انتكست معه، إذ كان يوجد في تلك المرحلة تيار سوفياتي كبير في المنطقة يشمل حتى الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية اللتين اندفعتا اندفاعة كبيرة في اتجاه السوفيات، بينما كان نصف "فتح" أو أكثر مع السوفيات، وبالتالي جاء انهيار الاتحاد السوفياتي كالصاعقة على اعتبار أن الثورة الفلسطينية فقدت سندها، وسادت أفكار خطأ ومضللة في تلك المرحلة فحواها أن العالم أصبح عالماً أميركياً وإسرائيلياً! ومَن لا يلحق بالقطار الأميركي سيخرج من التاريخ!!

■ **ألم تكن هناك مشكلة العراق أيضاً؟**

□ العراق كان تحت الحصار في ذلك الوقت بعد العدوان الأميركي عليه، لكنه لم يكن قد خرج من الساحة بعد. وعلى الرغم من أن حرب العراق أرست وجوداً وتدخلاً أميركيين كبيرين في منطقة الخليج، فإن النظام العراقي عملياً بقي موجوداً وله دور داعم لعرفات والمنظمة و"فتح". ففي سنة ١٩٨٠ صار هناك تحالف حقيقي لعرفات مع صدام حسين، وقرر الأول أن يضع رهانه كله على العراق، وقد استمرت هذه الحالة طويلاً حتى بعد عملية أوسلو، والمقصود هنا طبعاً العلاقة الإيجابية بين عرفات وصدام. فعرفات في مرحلة ما بعد أوسلو كان يشعر بأن العراق هي أقرب الدول العربية إليه، وأن صدام يعوضه عن خسارة مصر ويساعده على مواجهة سورية.

المهم أنه مع تفكك الاتحاد السوفياتي نشأ مناخ فحواه أن مَن لا يمشي في ركاب أميركا سيرفضه التاريخ، وأن العالم أصبح

أميركياً، وهذه النظرية سادت على نطاق عالمي، واتخذت على الساحة الفلسطينية طابعاً كاسحاً حتى إنه قيل في تلك المرحلة إن عهد الثورات وحركات التحرر انتهى مع انهيار الاتحاد السوفياتي.

أنا في ذلك الوقت خالفت هذا الرأي كلياً وكنت أعتقد أن أميركا أصبحت أضعف بعدما انهار الاتحاد السوفياتي لأن كلا المعسكرين ما كان ليستطيع حكم العالم، وكان هناك فراغات كثيرة. فالصين على سبيل المثال كانت خارج نطاق المعسكرين، كما أن حركة عدم الانحياز كانت إلى حد ما في الوضع نفسه، الأمر الذي يعني أن الدولتين الكبيرتين ما كانتا قادرتين على الإمساك بالعالم وضبط الأمور إلاّ نسبياً، ثم إذا كان الاتحاد السوفياتي قد انتهى فكيف يمكن للولايات المتحدة وحدها السيطرة على الوضع العالمي؟ هذا من دون أن ننسى الصين والاتحاد الأوروبي وفرنسا والدول الأُخرى التي لا بد من أن ترعى مصالحها وأدوارها. وكانت وجهة نظري أن الأوضاع في العالم ستكون أكبر من قدرة الولايات المتحدة على ضبطها، وفي الوقت نفسه كان يمكن أن نلاحظ أن انهيار الاتحاد السوفياتي أطلق، بصورة تلقائية، صحوة إسلامية: الثورة الإسلامية في إيران خرجت من حرب العراق سالمة وقوية ـ إذا ما اعتبرنا أن الحرب كان هدفها إنهاء الثورة الإسلامية في إيران؛ المقاومة الإسلامية في أفغانستان خرجت منتصرة؛ المقاومة الإسلامية كانت تنمو أيضاً في لبنان وفي فلسطين، وبالتالي لم يكن صحيحاً قط أن انهيار الاتحاد السوفياتي أنهى عصر المقاومات، وإنما الصحيح هو العكس، إذ فتح عصراً جديداً للمقاومة وبصورة أكثر جذرية وأكثر حسماً ممّا كانت الحال عليه في السابق. أمّا الذين شعروا بأن دورهم انتهى، فكانوا مهيئين للذهاب فوراً إلى مفاوضات مدريد، وقد اتُّخذ هذا القرار في المجلس المركزي الذي يضم فصائل منظمة التحرير الفلسطينية كلها. وكان الذهاب إلى مدريد يعني الذهاب إلى الرعاية الأميركية، ولذلك قررت القيادة الفلسطينية مباشرة ضرورة الالتحاق بالركب الأميركي، أي أن يكون لها مكان في القاطرة الأميركية، الأمر الذي أخذ هذه القيادة إلى مفاوضات مدريد. لقد ظنت أنها تخرج من التاريخ إذا ما استمرت في نمط المواجهة السابقة! وهذا كله مهّد لاتفاق أوسلو الكارثي، ولانتكاسة فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، ولا سيما "فتح" والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية.

■ **ومع ذلك واجهت منظمة التحرير مشكلة في مدريد هي عدم تمثيلها كما يجب، كما كان لديها هاجس القيادة في الداخل والأردن.**

□ هذه المشكلة تركت للقيادة المجال للقيام بدور ما، لأن القيادة القادمة من الداخل لم يكن ممكناً أن تعمل في المفاوضات من دون مباركة المنظمة، بل على العكس جاءت قيادة الداخل وسلّمت عرفات أوراقها كلها كي يطمئن ويدعمها ويغطيها، لكنه بقي غير مطمئن. فبعد انهيار الاتحاد السوفياتي صار عرفات موجوداً في المعادلة، وإن كان لديه بعض

المخاوف إزاء قياديين من الداخل من أمثال حيدر عبد الشافي لأن يصبحوا هم البديل، لأنه كان لديه تقديرات خطأ بأن التسوية ستتحقق، وأن مؤتمر مدريد سيأتي بنتائج في هذا المجال. مشكلة عرفات، أو واحدة من مشكلاته، أنه كان يعتمد على ما يُسرب إليه من تقارير سرية، وكان يفتقر إلى الاعتماد على الرؤية الاستراتيجية العامة، وإلى تقدير موقف مبني على الوقائع بعيداً عمّا تحمله التقارير السرية التي تُسَرَّب بقصد الترويج أو التوجيه.

■ **لو كنت محل عرفات، ماذا كنت ستفعل؟**

□ كان تقديري أن عليه أن يستمر في الثورة ولا يذهب إلى مدريد وأوسلو لأنه ليس صحيحاً أننا كنا معرضين للسحق، وكان عليه أن يصالح سورية وإيران ويحافظ على علاقته بالعراق ومصر والجزائر. كنت مدركاً أن التناقضات بين أميركا والدول الأُخرى أكبر كثيراً، وكنت أرى أن أميركا صارت أضعف وليس أقوى، ذلك بأنني لم أكن أعتبر الاتحاد السوفياتي حليفاً للثورة، وإنما مكبِّل لها من بعض الجوانب. جزء كبير من التنازلات التي قدمتها الثورة كان بسبب ضغط الاتحاد السوفياتي، ومنها على سبيل المثال برنامج النقاط العشر وقرار الذهاب إلى التسوية؛ فالاتحاد السوفياتي كان يغطي هذه التنازلات كلها تحت شعارات ثورية وتقدمية، لكن هدفه في الحقيقة كان استخدام منظمة التحرير الفلسطينية في الحرب الباردة، ولم يكن يحسب جيداً بأن هذه التنازلات تصبّ، في نهاية المطاف، في الحضن الأميركي.

كان واضحاً بالنسبة إلينا أنه إذا ذهبتَ إلى التسوية فإنك في النهاية ستذهب إلى أميركا والكيان الصهيوني. كان الاتحاد السوفياتي يريد أن يُدخل القيادة في التسوية كي يستخدمها ورقة في الحرب الباردة، غير أن الحرب الباردة لم تكن ذاهبة نحو التسوية، وإنما نحو الصراع بين أميركا والاتحاد السوفياتي؛ صحيح أنه كان هناك وفاق، لكن كان هناك صراع أيضاً بين الدولتين الكبريين. والأمر الذي جعلنا ـ نحن في تيار أبو حسن وحمدي ـ نتجنب هذه المآزق ونحافظ على القدرة على العمل، هو أننا لم نعتبر في يوم من الأيام أن الاتحاد السوفياتي هو الجدار وأنه هو الذي يحمينا، ولا ربطنا مصير الثورة بالاتحاد السوفياتي. صحيح أننا لم نكن نعتبر الاتحاد السوفياتي عدواً، لكننا كنا نعتبره صديقاً وليس سنداً للثورة، وكان يمكن أن نستفيد من تناقضاته مع أميركا باعتبار أن أميركا والكيان الصهيوني هما العدو الأساسي (طبعاً الكيان الصهيوني أولاً). لذلك عندما انتهى الاتحاد السوفياتي شعرتُ بأن صخرة انزاحت عن صدر الشعوب العربية والإسلامية والوضع العالمي، وكنت أظن أن الحركة اليسارية والشيوعية تحديداً ستنطلق انطلاقة كبرى بعد انهيار الاتحاد السوفياتي إذا استقلت بعقولها وبدأت تفكر بطريقة متحررة من "المركز" السوفياتي، لكن للأسف هذا لم يحدث ولم تنطلق عقولها كي تعمل بصورة مبدعة، ولتراجع التجربة كلها، وإنما ظلت على النمط نفسه من التبرير. لقد حدثت انتكاسة كبيرة على المستوى اليساري في

أوروبا وفي أميركا وليس فقط في بلادنا، وانتكاسة تحديداً في فلسطين، لكن في الوقت نفسه صار لدينا مشروع لمقاومة فيها بعد إسلامي.

■ مقاومة لها بعد إسلامي، أو الدخول كلياً في الخيار الإسلامي؟

□ ماذا يعني الخيار الإسلامي؟ إن الأمر الأساسي بالنسبة إلينا كان أن الإسلام يجب أن يخوض في المقاومة في فلسطين وليس نحن مَن نمثل هذا التوجه. كنت متأكداً أن تيار حزب الله في لبنان سيؤدي دوراً أساسياً، وكنت متأكداً أن العمل الإسلامي في فلسطين ستقوده "حماس" والإخوان المسلمون والقوى الجهادية (حركة الجهاد الإسلامي)، وبالتالي يتحول إلى مقاومة شعبية بصورة أوسع. أمّا إلى أي مدى سيذهب هذا الاتجاه، فإن هذا الأمر يظل مفتوحاً أمام التطورات وموازين القوى، لأنني كنت أرى أن نقطة الضعف في التيار الإسلامي تتمثل في غياب سند عربي إسلامي يُلجأ إليه في المعادلة الفلسطينية في غياب الجبهوية مع اليسار والعلمانيين والقوميين والمسيحيين، وإن كان له سند إيراني وسوري ولبناني وعربي عام، وتتمثل أيضاً في أن هذا التيار يحاول إقامة علاقات، لكن من النوع الذي لا يمكن الركون إليه. فعلى سبيل المثال، كان الإسلاميون في الأردن قادرين على أن يرتبوا أمورهم مع النظام لكن بحدود ضعيفة جداً، وليس بحدود تمكّن من تحويل الأردن إلى قاعدة أو قوة تدعم الوضع الفلسطيني. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أيضاً أن المنطقة كانت تشهد في ذلك الوقت نهوضاً إسلامياً عبّر عنه الانقلاب الإسلامي في السودان، وصعود الحركة الإسلامية بصورة عامة في الجزائر. هذا كله في أوائل التسعينيات. لكن هذه التقديرات كلها أُخضعت إلى ما يمكن أن يحدث من متغيرات في موازين القوى، ومن نشوء صراعات عربية ـ عربية قد تكون مواتية، أو غير مواتية. فأنت تقود سفينة في بحر لا تسيطر فيه على ما قد يجتاحه من رياح وأمواج وعواصف.

■ هذا النهوض الإسلامي كما تقول، كيف انعكس على الوضع الفلسطيني؟

□ الوضع الفلسطيني مع اتفاق أوسلو عرف انقساماً عميقاً انعكس في منظمة التحرير بحيث يمكن القول إن الجبهة الديمقراطية ذهبت إلى جانب "فتح"، بينما كانت الجبهة الشعبية في الوسط أقرب إلى "فتح". أمّا التيار الثاني الذي نشأ في فلسطين وراح يثبت وجوده على الأرض، فكان يتمثل في حركتَي "حماس" والجهاد الإسلامي. ففي ذلك الوقت انسحبت "سرايا الجهاد" من الساحة في سنة ١٩٩٢ باعتبار أن حركة الجهاد أثبتت وجودها وكذلك حركة "حماس"، الأمر الذي يعني أنه لم يعد هناك من ضرورة لسرايا الجهاد كقوة ثالثة. عندها توزع مؤيدو التيار الإسلامي الجهادي بين "حماس" وحركة الجهاد، وتبيّن أن هذا الخط الإسلامي هو الذي يتحمل أعباء ومسؤوليات المقاومة على الأرض الفلسطينية حتى مرحلة الانتفاضة الثانية.

الإسلام ومفهوم الإسلام السياسي

■ هل تتبنّى مفهوم الإسلامي السياسي؟

□ أنا لا أستخدم مصطلح الإسلام السياسي. لماذا؟ إذا كان هناك إسلام وهناك سياسة فإن المحصلة تكون حركة إسلامية لها برنامج سياسي. الإسلام بطبيعته له بعد سياسي، ولهذا لا يستخدم العلماء والحركات الإسلامية هذا المصطلح، لأن المصطلح يوحي بأن ثمة إسلاماً سياسياً وإسلاماً غير سياسي. ثم إن كلمة سياسي فضفاضة وتختلف من حركة إلى أُخرى، ومن برنامج إلى آخر، لكن في النهاية هناك مبدأ يقول: لا مشاحنة في المصطلح. وفي جميع الأحوال لا بد من أن يكون هناك قوى مرجعيتها الإسلام، فعلى سبيل المثال، حزب النهضة في تونس أعلن أنه حزب سياسي مرجعيته الإسلام، إلاّ إنه في الوقت نفسه، قال أنه لم يعد حركة دعوية.

أمّا بالنسبة إليّ فأنا لا أعتبر أن المطالبة بوحدة الأمة العربية مشروع قومي وليس مشروعاً إسلامياً، أو أن المطالبة بتحرير فلسطين مشروع وطني وليس إسلامياً، أنا أعتبره وطنياً إسلامياً. إذا قلت أريد عدالة اجتماعية، أليس للعدالة الاجتماعية علاقة بالإسلام! أم إن الإسلام لا علاقة له بها؟ كنت أقول لبعض الإسلاميين في مسألة الديمقراطية لا تقولوا لا نريد ديمقراطية، خذوها وفككوها إلى عناصرها، واسألوا الإسلام ما رأيه فيها. حتى العلمانية، إذا فُككت إلى عناصرها اسألوا الإسلاميين عمّا يوافقون عليه أو يرفضونه. فمثلاً عندما نطرح التداول على السلطة وخيار الشعب، أليس ممكناً أن يكونا مقبولَين إسلامياً ويوافق عليهما علماء من الإسلام؟ تقول أنا أريد حرية الفكر ولا أريد أن يتدخل أحد قسرياً في الإيمان القلبي للإنسان، أليست هذه العلمانية؟ الموضوع الذي تسبب بالمشكلة الكبرى أن هناك مَن يعتبر أن الإسلام هو فقط تطبيق الشريعة والحدود، وهنا تكمن المشكلة.

■ ما يهمنا هو كيف ترى الإسلام السياسي في فلسطين؟

□ إن تحرير فلسطين بالنسبة إليّ يمكن أن يكون مشروعاً قومياً، كما يمكن أن يكون مشروعاً إسلامياً، ليس هناك مشكلة في التسمية، فمعظم الأشياء إذا بُسّط يحدث اتفاق عليه، إلاّ إن هناك مَن يقول كلا لسنا متفقين؛ بكلام آخر إن الإسلام يحتمل مثلاً ما أعلنه الشيخ راشد الغنوشي في تونس، ويحتمل وجهات النظر الأُخرى المخالفة في الاجتهاد فيه. فالاجتهاد الإسلامي رحب جداً بدليل ما عرفه من اجتهادات ومدارس ومذاهب، وأنا أرى أن فلسطين تحتمل المرجعيات كلها التي ترفض وجود الكيان الصهيوني، وتناضل أو تجاهد من أجل التحرير والعودة.

■ ماذا يعني هذا الكلام تحديداً بشأن الغنوشي؟

□ يعني أن الغنوشي يقول أنه يريد أن يقيم

حزباً سياسياً مرجعيته الإسلام وليست وظيفته الدعوة، أي فصل الدعوة عن البرنامج السياسي، بل هناك علماء وحركات إسلامية يقولون إن وظيفتهم الدعوة فقط ولا يتدخلون بالسياسة ـ مثلاً تيار التبليغ والدعوة. لهذا، لا يُحشر الإسلام في اتجاه سياسي محدد، أو في اتجاه دعوي محدد، فهنالك جيش من العلماء الكبار لا يتدخلون في السياسة؛ قد يعجبك أو لا يعجبك ذلك، لكنك لا تستطيع أن تقول لهم إنكم لا تعرفون أن في الإسلام سياسة أيضاً. وهنالك جيش من السياسيين المسلمين المتدينين لا يقومون بالدعوة، وقد يعجبك أو لا يعجبك ذلك، لكنك لا تستطيع أن تقول لهم الدعوة فرض عين عليكم لأنها فرض كفاية يقوم بها مَن هو أهل لها.

■ **هذا يعني أن حزب الغنوشي أصبح مثل الأحزاب الديمقراطية المسيحية في أوروبا، بمعنى أن إسلامه هو مرجعية فقط.**

□ لا شبه حتى من ناحية تركيب الاسم، فلكل واحد سماته المختلفة. فمفهوم المرجعية الإسلامية ودورها يختلف عن مفهوم المرجعية المسيحية ودورها، وأنا لا أقارن مطلقاً بين حزب النهضة والأحزاب الديمقراطية المسيحية سواء أكان في الموقف من الدين، أم من السياسة.

■ **ماذا عن حزب العدالة والتنمية في تركيا؟ هل يُعتبر إسلامياً؟**

□ حزب العدالة والتنمية التركي ملامحه غير محددة. فقد أعلن عندما نشأ وانفصل عن إربكان أنه حزب قومي علماني وليس حركة إسلامية، وقد دخل عليه تغير بعد سنة ٢٠١١ من حيث تحالفاته وعلاقاته السياسية بالحركات الإسلامية، ولا أظنه غيّر فيما أعلنه عند نشأته الأولى. فما تغير الآن فيه تحالفاته وخطه السياسي، وهذان قابلان للتغيير أيضاً.

■ **الإخوان المسلمون في مصر حاولوا أن يفرضوا الشريعة عبر الدستور. هل هذا إسلام سياسي؟**

□ لم يكن هناك مشكلة في مصر بالنسبة إلى المرجعية، ولا يمكن الحكم على ما دار من نقاشات بشأن الدستور، لأن الوضع كان يقف على رمال متحركة، وكانت المنافسة شديدة في تلك النقاشات بين الإخوان والسلفيين والقوميين واليساريين. ولعل جوهر الإشكال كان وصول محمد مرسي إلى رأس الدولة، أمّا الدستور فكان من السهل الاتفاق عليه.

■ **لقد تجنبوا توضيح مسألة المساواة الوطنية، وبالتالي القول ما إذا كان يمكن للمسيحي أن يصبح نائباً للرئيس، وهي مسألة كنّا سابقاً نعتبرها من المسلمات.**

□ لا أتصور أن فتح هذا الموضوع ضروري، وإنما يجب تركه للتفاهم الداخلي بعيداً عن تثبيته في نص دستوري، لأن الرئيس في جميع الديمقراطيات له سمات شديدة الخصوصية، وهو ليس أمراً مفتوحاً للمساواة المطلقة، وليس مثبتاً بالدين والطائفة أو اللون والعرق في الدساتير عامة.

■ **هل لديك قراءة خاصة للإسلام؟**

□ أفهم الإسلام في التطبيق بأنه يكاد يكون أقرب إلى الصيدلية. المهم التشخيص أو الوصفة الطبية، ويجب أن يكون لديك فهم صحيح للمشكلة، بمعنى أن تأتي إلى الإسلام بالمشكلة أو القضية، فتعللها بدقة عالية وتسأله ما هو حكمه في هذه القضية أو تلك المشكلة؟ ماذا نفعل في هذه القضية؟ هنا تتعدد الاجتهادات أو نوع الدواء، فهنالك علاجات بناء على التشخيص. بعبارة أُخرى، عندما يكون الإسلام هو المرجعية، فليس لديّ قوالب جاهزة لأقول هذه تصلح وهذه لا. فالعلاقة بالمسيحي مثلاً، ليس لها حكم واحد جاهز، إذ يمكن أن تتحقق مساواة مدنية في ظل دستور مرجعيته إسلامية. فالعلاقة بين المسلمين والمسيحيين في صدر الإسلام قامت على التعاقد الذي يتفق عليه الطرفان، مثلاً إذا تفاهمت مع المسيحي على أي شرط يريد أن يضعه وقبلت به، يصبح الشرط ملزماً في الإسلام. عندما تدرس التاريخ وتنظر في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، فإنك ترى أن هذه العلاقة لم تكن على نمط واحد، وكانت تخضع للعقد الذي يتوافق عليه الطرفان.

■ **يمكن أن تُطالب بالحل الإسلامي أيضاً، لأن الإسلاميين في خطابهم يشددون على ما يسمونه الحل الإسلامي فقط.**

□ الشعب هو الذي يقرر الخيار، وإذا اختار الحل الإسلامي لا يمكنني أن أقول له هذا ممنوع، وإذا اختار حلاً آخر يمكنني أن أعارضه لإقناعه برأيي، لكن في جميع الأحوال لا يمكن أن يُفرض الحل الإسلامي بالقوة والقمع وضد إرادة الشعب. إن "الحل الإسلامي" شعار غير محدد المعالم، ويحتاج إلى تحديد وفقاً للزمان والمكان، كما لو أنك تقول إن الحل للمريض هو الدواء، أي دواء؟

■ **في تقويمك لتجارب الإسلام السياسي طوال عشرين عاماً، هل تجد أن هناك انحساراً لهذه الموجة بسبب أعمال "داعش" وتمذهب الإسلام السياسي من جانب إيران أو ما يسمى تطييف الإسلام السياسي، وكذلك تجربة أردوغان وتجربة الإخوان المسلمين في إطار الربيع العربي؟ ألم تؤدِّ هذه العوامل كلها إلى انحسار الإسلام السياسي؟**

□ ربما يؤثّر هذا العامل أو ذاك جزئياً في بعض الحالات وفي بعض القوى وموازينها، لكن هذا لا يعني إعطاء حكم قاطع بمعنى الانحسار. فالتيار الإسلامي يمكن أن يجدد نفسه، ويمكن أن ينشأ مشروع إسلامي جديد. إذا لم تقدم حلاً بديلاً وتركت الناس يتخبطون، فعندها ستحدث ردات فعل. لقد مرّ على الإسلام تجارب كثيرة، وبعضها حاول تحريفه، أو نسفه، أو تشويهه، أو تلبيسه بما هو غريب عنه، وفي هذه التجارب هناك مَن وصل إلى الحكم لعشرات الأعوام أو أكثر، ثم تبدد أو تقلص أو انكمش، وبقي الإسلام. هذا ما تعلمه تجربة ١٥٠٠ عام. أمّا بالنسبة إلى ما ورد من تجارب، فلا تستطيع أن تضعها في سلة واحدة. هذا من ناحية، ومن الناحية الأُخرى فإن كل ما هو سلبي سينقلب على مسببه ويذهب معه. أمّا انحسار الإسلام أو نهوضه فمسألتان أربطهما بموازين القوى

العالمية والإقليمية، وليس بسبب أخطاء هذا الطرف أو ذاك ولا حتى نجاحاته. فقد جرى انحسار عالمي للإسلام بعد الحرب العالمية الأولى، ثم بدأ الانحسار يتوقف مع الثورة في إيران والمقاومة وأفغانستان إلى أن دخلنا في صحوة إسلامية عالمية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، فالحالتان ارتبطتا بموازين القوى العالمية سلباً وايجاباً.

انحسار اليسار الفلسطيني

■ **يعني يبقى هناك تيار قومي وتيار ليبرالي.**

□ صحيح تماماً. هذه التيارات موجودة، وقادرة على تجديد نفسها، وأنا لا أعتقد أن الشيوعية أو الماركسية أو القومية انتهت في العالم. القول إن هذا التيار انتهى أو ذاك التيار لم يعد موجوداً، إنما هو تفسير لا يتطابق مع الواقع، فتيار الحركة "الفوضوية" على سبيل المثال عاد إلى المسرح بعد غياب طويل بعد أن ظُن كل الظن أنه انتهى. تصور أن هناك عقائد تُعتبر بائدة، ومع ذلك فإن هناك جماعات ما زالت تحملها.

■ **ما هو في رأيك سبب انحسار اليسار الفلسطيني؟**

□ تقويمي الأساسي أن اليسار يجب أن يحمل مرجعية وطنية وقومية وإسلامية، ويجدد تحليله للأوضاع العالمية والإقليمية والعربية والفلسطينية، ويكون مبدعاً في إثارة قضية العدالة الاجتماعية. مشكلة اليساريين عامة، أنهم يحافظون على المنهجية والعقلية والمبادئ نفسها، وحتى على الأخطاء ذاتها، غير أن اليسار في فلسطين، بصورة خاصة، واجه مشكلة الصراع مع الكيان الصهيوني، وكان عليه أن يتميز بتقدم الصفوف في قيادة المقاومة ضده، لكنه لم يفعل لأن مصدره الأساسي طبقي واجتماعي وليس وطنياً وقومياً. طبعاً لا أعني أنه ليس وطنياً وليس قومياً أو لا يمكن أن يكون، إلاّ إنه كان دائماً يلحق ولا يبادر في مواجهة المشروع الصهيوني. ولعل السبب في ذلك هو المنهجية والتأثر باليسار العالمي.

■ **ما هي مشكلة اليسار الفلسطيني الحالي تحديداً؟ هل هي أنه وافق وانخرط في السلطة الفلسطينية؟**

□ علاقته بـ "فتح" والسلطة واحدة من مشكلاته، واليسار الفلسطيني يجب ألاّ يكون موقفه من الإسلام هو الرفض، بل يجب أن يكون في صفوفه أناس مؤمنون. والأهم أن يكون لديه تقدير إيجابي للإسلام، فالجماهير مسلمة، فكيف لا يراعي ذلك؟ ما الذي يمنع أن يكون قائد يساري مثل علال الفاسي الزعيم المغربي، قائداً وطنياً وعروبياً وإسلامياً؟! ثم مَن قال إن المقاومة وحركات التحرر تصنَّف بمقاييس اليسار

واليمين؟ أين تضع جبهة التحرير الجزائرية في مرحلة الثورة ضد الاستعمار؟ عندما تقرأ أعمال هوشي منه كلها، لا ترى فيها أي تلميح إلى الشيوعية، ولا إلى أي حزب شيوعي، فحزب هوشي منه حزب وطني يخوض المقاومة، ويقود جماهير الشعب في فييتنام. أنا لا أفهم اليسار بمفهوم القوالب المعلبة الأوروبية، تعالوا لنرى جوهر المسألة: ما هو اليسار؟ دعنا نقم بتفكيك مفهوم اليسار. هنا يرتبك التعريف بصورة عامة. وكان رأيي دائماً يقول إذا كانت الأمة مجزأة، فإن على التعريف أن يكون وحدوياً، وإذا كانت محتلة، عليه أن يكون في مقدمة المقاومين، وإذا كانت ممزقة في كياناتها الأساسية، فكيف لا يكون عامل توافق ولحمة؟ وإذا كان هناك انحراف عن المبادئ والثوابت، فكيف لا يكون أول مَن يتصدى؟ ومع ذلك هذا رأيي ولا أفرضه على أحد.

■ **أين أصبحت نظرية التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية في ظل ما يجري الآن في المنطقة؟**

□ لم يعد هناك تناقض رئيسي بالمعنى السابق، هناك فقط قضايا رئيسية، لماذا؟ لأن موازين القوى متحركة، بمعنى أنها تقوم على رمال متحركة، وإذا برز تناقض رئيسي فلن يكون ثابتاً، والتناقضات الثانوية أيضاً ليست ثابتة. أنا أشعر بأن جميع القوانين الحاكمة الآن في المنطقة في ظروف الفوضى ما عادت هي القوانين التي عرفناها في الماضي؛ عليك أن تنسى كل ما كنت تعرفه، العالم القديم انتهى والعالم الجديد بدأ، لكن ملامحه لم تتكون بعد، وليس مفهوماً أين يتجه هذا العالم الجديد وكيف سيعمل وكيف ستتعامل معه. حتى المحاور التي كنا نعرفها لم تعد موجودة. هل يمكنك أن تقول إن هناك محوراً روسياً ـ إيرانياً الآن؟ هذا المحور موجود وليس موجوداً في الوقت نفسه، بل هناك شبه محور لأن الروسي داخل في محور مع إيران، إلاّ إنه في الوقت نفسه داخل في علاقات تعاون قوية جداً مع الكيان الصهيوني، ويريد في آن معاً أن يقيم تفاهماً مع الأميركي أيضاً. ماذا نسمي هذه الحالة؟ كل شيء انقلب في العالم، ونحن نحتاج إلى عقل يفكر بطريقة مختلفة، وإلى موضوعات جديدة في حل التناقضات وتقدير الموقف ومواجهة التحديات، فقد يصير تحقيق الأمن الاجتماعي مثلاً أهم من أي قضية أُخرى من حيث الأولوية، أو تصبح المحافظة على الدولة ووحدة المجتمع من خطر التفتيت والحرب الأهلية وقيام كيانات متعادية، لهما الأولوية على ما عداهما.